(٦)

من غار حراء

« من غار حراء حيث تعبد الرسول وتحنث ، أوحيث هبط الوحي بالتنزيل ، انبعث النور الذى رشد ، والمفتاح الذى فك المغاليق ، والرسول الذى قاد البشرية فأصلحها واسعدها واعلاها ! . . .

ولقد اظلمت المسالك اليوم فهى بحاجة إلى مصباح ، واغلقت ابواب الخير والحق فهى بحاجة إلى مفتاح ، وتاهت البشرية فهى بحاجة الى هدى الرسول يحقق لها النجاح والفلاح . . . افما آن للعالم المتمدن ان يطلب الدواء من الشريعة الغراء ، شريعة صاحب حراء ؟ ! . . »

الشرباصى

من غار حراء

طلعت جبل النور ووقفت على غار حراء وقلت لنفسي، هنا أكرم الله بالرسالة محمداً ﷺ ونزل عليه الوحي الأول فمن هنا طلعت الشمس التي أفاضت على العالم نوراً جديداً وحياة جديدة ، إن العالم ليستقبل كل يوم صباحاً جديداً وحياة جديدة إن العالم صباحاً لا جدة فيه ولا طرافة ، ولا خير فيه ولا سعادة . وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً استيقظ فيه الانسان ولم تستيقظ فيه الانسانية ، واستيقظت فيه الاجسام ولم تستيقظ فيه القلوب والأرواح . وما أكثر النهار المظلم والصبح الكاذب في تاريخ العالم . ولكن من هنا طلع الصبح الصادق الذي أشرق نوره على كل شيء واستقظ فيه الكون وتغير مجرى التاريخ .

لقد كانت الحياة كلها أقفالا معقدة وابوابا مقفلة ، كان العقل مقفلا اعيا فتحه الحكماء والفلاسفة كان الضمير مقفلا اعيا فتحه الوعاظ والمرشدين ، كانت القلوب مقفلة اعيا فتحها الحوادث والآيات ، كانت المواهب مقفلة اعيا فتحها التعليم والتربية والمجتمع والبيئة ، كانت المدرسة مقفله اعيا فتحها العلماء والمعلمين كانت المحكمة مقفلة اعيا فتحها المنظلين والمتحاكمين ، كانت الأسره مقفلة اعيا فتحها المصلحين والمفكرين كان قصر الأماره مقفلا اعيا فتحه الشعب المظلوم والفلاح المجهود والعامل المنهوك وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مقفلة اعيا فتحها جوع الفقراء وعرى النساء وعويل الرضعاء ، لقد حاول المصلحون الكبار والمشترعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال فشلوا واخفقوا ، فان القفل لا يفتح بغير مفتاحه ، قد ضيعوا المفتاح من قرون كثيرة . وجربوا مفاتيح من صناعتهم ومعادنهم فاذا هي لاتوافق الأقفال واذا هي لا تغني عنهم شيئا ؛ وحاول بعضهم كسر هذه الاقفال فجرحوا أيديهم وكسروا آلتهم .

فني هذا المكان المتواضع ، المنقطع عن العالم المتمدن ، على جبل ليس بمخصب ولا بشامخ تم مالم يتم في عواصم العالم الكبيرة ومدارسه الفخمة ومكتباته الضخمة هنا من الله على العالم برسالة محمد ﷺ وفي رسالته عاد هذا المفتاح المفقود إلى الانسانية ، ذلك المفتاح هو (الايمان بالله الرسول واليوم الآخر) فتح به هذه

الأقفال المعقدة قفلا قفلا وفتح به هذه الأبواب المقفلة بابا بابا ، وضع هذا المفتاح النبوى على العقل الملتوى فتفتح ونشط واستطاع ان ينتفع بآيات فى الآفاق والأنفس ويتوصل من العالم إلى فاطره ومن الكثرة إلى الوحدة ويعرف شناعة الشرك والوثنية والخرافات والاوهام وكان قبل ذلك محاميا مأجورا يدافع عن كل قضية حقا وباطلا. وضع هذا المفتاح على الضمير الانسانى النائم فانتبه وعلى شعور الميت فانتعش وعاش وتحولت النفس الأمارة بالسوء مطمئنة لا تسيغ الباطل ولا تتحمل الاثم حتى يعترف الجانى أمام الرسول بجريمته ويلح على العقاب الأليم الشديد وترجع المرأة المذنبة إلى البادية حيث لا رقيب عليها ثم تحضر المدينة وتعرض نفسها للعقوبة التى هى أشد من القتل ، ويحمل الجندى الفقير تاج كسرى ويخفيه فى لباسه ليستر صلاحه وأمانته عن أعين الناس ويدفعه إلى الأمير لأنه مال الله الذى لا يجوز الخيانة فيه . كانت القلوب مقفلة لا تعتبر ولا تزدجر ولا ترق ولا تلين فأصبحت خاشعة واعية تعتبر بالحوادث وتنتفع بالآيات وترق للمظلوم وتحنو على الضعيف وضع هذا المفتاح على القوى المخنوقة والمواهب الضائعة فاشتعلت كاللهيب وتدفقت كالسيل واتجهت الاتجاه الصحيح فكان راعى الابل راعى الامم وخليفته يحكم العالم واصبح فارس قبيلة وبلد قاهر الدول وفاتح الشعوب العريقة فى القوة والمجد ، وضع المفتاح على المدرسة المقفلة وقد هجرها المعلمون وزهد فيها المتعلمون وسقطت قيمة العلم وهان المعلم فذكر من شرف العلم وفضل العالم والمتعلم والمربى والمعلم وقرن الدين بالعلم حتى كانت له دولة ونفاق واصبح كل مسجد من المساجد وكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة واصبح كل مسلم متعلما لنفسه معلما لغيره ووجد أكبر دافع إلى طلب العلم وهو الدين . وضعه على المحكمة المقفلة فأصبح كل عالم قاضيا عادلا وكل حاكم مسلم حكما مقسطا ، واصبح المسلمون قوامين لله شهداء بالقسط ، وجد الايمان بالله وبيوم الدين فكثر العدل وقل الجدل ، وفقدت شهادة الزور والحكم بالجور ، وضعه على الأسرة المقفلة وقد فشا فيها التطفيف بين الوالد وولده ، والاخ واخوته ، والرجل وزوجته ، وتعدى من الاسرة إلى المجتمع فظهر بين السيد وخادمه والرئيس والمرؤس والكبير والصغير ، كل يريد أن يأخذ ماله ولا يدفع ما عليه وأصبحوا مطففين إذا اكتالوا

على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، فغرس فى الاسرة الايمان وحذرها من عقاب الله وقرأ عليها قول الله (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا) وقسم المسئولية على الاسرة والمجتمع كله فقال (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) وهكذا وجد أسرة عادلة متحابه مستقيمة ومجتمعا عادلا وأوجـــد فى اعضائه شعورا عميقا بالأمانة وخوفا شديدا من الآخرة حتى تورع الامراء وولاة الأمور وتقشفوا واصبح سيد القوم خادمهم ووالى الأمه كولى اليتيم ان استغنى استعف وان افتقر أكل بالمعروف وأقبل إلى الأغنياء والتجار فزهدهم فى الدنيا ورغبهم فى الآخرة وأضاف الأموال إلى الله فقرأ (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وقرأ (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) وحذرهم من الاكتناز وادخار الأموال وعدم الانفاق فى سبيل الله ، فقرأ عليهم (والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جبـــاههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون) .

ابرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفـــرد الصالح المؤمن بالله الخائف من عقاب الله الخاشع الأمين المؤثر الاخرة على الدنيا المستهين بالمادة المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية يؤمن بأن الدنياخلقت له وانه خلق للاخرة فاذا كان هذا الفرد تاجراً فهو التاجر الصدوق الأمين وإذا كان فقيرا فهو الرجل الشريف الكادح وإذا كان عاملا فهو العامل المجتهد الناصح وإذا كان غنياً فهو الغنى السخى المواسى وإذا كان قاضيا فهو القاضى العـــادل الفهم . وإذا كان والياً فهو الوالى المخلص الأمين وإذا كان سيداً رئيسا فهو الرئيس المتواضع الرحيم . وإذا كان خادما أو أجيرا فهو الرجل القوى الأمين . وإذا كان أمينا للاموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم . وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلامى وتأسست الحكومة الإســـلامية فى دورها . ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبرة لأخلاق الافراد ونفسيتهم فكان لمجتمع مجتمعا صالحا

أميناً مؤثر الآخرة على الدنيا متغلبا على المادة غير محكوم لها . انتقل اليه صدق التاجر وأمانته وتعفف الفقير وكدحه ، واجتهاد العامل ونصحه ، وسخاوة الغني ومواساته ، وعدو القاضي وحكمته ، واخلاص الوالي وأمانته ، وتواضع الرئيس ورحمته ، وقوة الخادم وحراسة الخازن ، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة مؤثرة للمبادىء على المنافع والهداية على الجباية وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة كلها ايمان وعمل صالح وصدق وإخلاص وجد واجتهاد وعدل في الأخذ والعطاء وانصاف النفس مع والغير.

وقد ذهلت في حديثي لنفسي . وتمثلت لي الجماعات الإسلامية الأولى بجمالها وتفاصيلها كأني اشاهدها واتنفس في جوها وانقطعت الصلة بيني وبين العالم المعاصر .

وجاءت مني التفاتة إلى هذا العصر الذي نعيش فيه فقلت اني لأرى أقفالا جديدة على أبواب الحياة الانسانية وقد قطعت الحياة مراحل طويلة وخطت خطوات واسعة وتعقدت الحياة والتوت وتطورت المسائل وتنوعت وتساءلت هل يمكن فتح هذه الاقفال الجديدة بذلك المفتاح العتيق ؟ وابيت أن أحكم بشيء حتى أختبر هذه الاقفال وأضع عليها المفتاح ولمست هذه الاقفال بالبنان فاذا هي الاقفال القديمة بتلوين جديد ، وإذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم واذا المشكلة الكبرى وأساس الأزمة هو الفرد الذي لايزال لبنة المجتمع وأساس الحكومة ، ووجدت ان هذا الفرد قد أصبح اليوم لايؤمن إلا بالمادة والقوة ولايعنى الا بذاته وشهواته وانه يبالغ في تقدير هذه الحياة ويسرف في عبادة الذات وارضاء الشهوات وقد انقطعت الصلة بينه وبين ربه ورسالة الانبياء وعقيدة الآخرة فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء هذه المدنية فاذا كان تاجرا فهو التاجر المحتكر النهم الذي يحجب السلع أيام رخصها ويبرزها عند غلائها ويسبب المجاعات والأزمات . واذا كان فقيراً فهو الفقير الثائر الذي يريد من يتغلب على جهود الآخرين بغير تعب . واذا كان عاملا فهو العامل المطفف الذي يريد ان يأخذ ماله ولا يدفع ماعليه ، وإذا كان غنياً فهو الغني الشحيح

القاسى الذى لارحمة فيه ولاعطف ،وإذا كان واليا فهو الوالى الغاش الناهب للاموال ، وإذا كان سيدا فهو الرجل المستبد المستأثر الذى لايرى إلا إلى فائدته وراحته ، وإذا كان خادما فهو الضعيف الخائن ، وإذا كان خازنا فهو السارق المختلس للاموال ، وإذا كان وزير دولة أو رئيس وزارة أو رئيسا جمهورية فهما المادى المستأثر الذى لايخدم إلا نفسه وحزبه ولا يعرف غيره ، وإذا كان زعيما أو قائدا فهو الوطنى أو الجنسى الذى يقدس وطنه ويعبد عنصره ويدوس كرامة البلاد الأخرى والشعوب الأخرى ، وإذا كان مشترع فهو الذى يسن القوانين الجائرة والضرائب الفادحه ، وإذا كان مخترعا اخترع المدمرات والناسفات ، وإذا كان مكتشفا اكتشف الغازات المبيدة للشعوب المخربة للبلاد والقنبلة الذرية تهلك الحرث والنسل ، وإذا كان فيه قوة التطبيق والتنفيذ لم ير بأسا بالقاء هذه القنابل على الامم والبلاد .

وبهؤلاء الأفراد تكون المجتمع وتأسست الحكومه فكان مجتمعا ماديا اجتمع فيه احتكار التاجر وثورة الفقير وتطفيف العامل وشح الغنى وغش الوالى واستبداد السيد وخيانة الخادم وسرقة الخازن ونفعية الوزراء ووطنية الزعماء واجحاف المشترع وإسراف المخترع والمكتشف وقسوة المنفذ وبهذه النفسيات المادية تولدت أزمات طريفة ومشاكل معقدة تشكو منها الانسانية بثها وحزنها كالسوق السوداء وفشو الرشوة والغلاء الفاحش واختفاء الاشياء والتضخم النقدى ،وأصبح المفكرون والمشترعون لايجدون حلا لهذه المشاكل وأصبحوا إذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمة أخرى بل ان حلولهم القاصرة ومعالجتهم المؤقته هى التى تسبب أزمات جديدة وتنقلوا من حكومة شخصية إلى ديمقراطيه إلى دكتاتوريه ثم إلى ديمقراطية ومن نظام رأسمالى إلى نظام اشتراكى إلى شيوعى وإذا الوضع لايتغير لان الفرد الذى هو الاساس لايتغير ويجهلون أو يتجاهلون فى كل ذلك أن الفرد هو الفاسد المعوج ولو عرفوا ان الفرد هو الاساس وانه فاسد معوج لما استطاعوا اصلاحه وتقويمه لانهم على كثرة مؤسساتهم التعلمية ودور التعليم والتربية والنشر ـ لايملكون مايصلحون به الفرد ويقومون اعوجاجه ويحولون اتجاهه من الشر إلى الخير ومن الهدم إلى البناء لانهم أفلسوا فى الروح وتخلوا عن

الايمان وفقدوا كل مايغذى القلب ويغرس الايمان ويعيد الصلة بين العبد وربه. وبين هذه الحياة والحياة الأخرى وبين المادة والروح وبين العلم والأخلاق. وفى الأخير أدى بهم إفلاسهم الروحى ومادتهم العمياء وإستكبارهم إلى استعمال آخر ماعندهم من آلات التدمير التى تبيد شعبا بأسره وتخرب قطرا بطوله حتى استهدفت الحضارة والحياة البشرية - إذا تبادلت الدول المتحاربة استعمال هذه الآلات النهاية الأليمة.